

«ابن خلدون» : قراءة متجددة في روسيا

زينب نصار- لبنان.

يستعيد العالم هذا العام، الذكرى الستمئة على رحيل المفكر الكبير ابن خلدون، فيتداعى المفكرون والمشتغلون في حقول العلم والمعرفة للاحتفاء به، وقررت روسيا المشاركة وعلى طريقته بدعوة ابن خلدون نفسه، نافضة الغبار عن الزمن، يدفعها ما حل بها، إلى استعادة أعماله. فيعيد الكتاب الروس قراءته، وتدارسه، على اختلاف مشاربهم، واختصاصاتهم، ولا عجب في ذلك، إذ إن ابن خلدون نفسه، وبسبب تعدد جوانب فكره، احتار الباحثون في وضع صفة اختصاص له، لئلا ترجح واحدة على أخرى فتغبن. ولعلي به اليوم، يكفي أن يستعاد اسمه «ابن خلدون» هكذا، ساطعاً قادماً من شرق القرون الوسطى الأقل إلى الألفية الثالثة، بكليتها، ليحط متجدداً، وبالتحديد في مرحلة عصية على الإحاطة والقبولة، أعني بها العولمة.

فإذا كان المستشرقون الأوائل اكتشفوا ابن خلدون وأثره العلمي الكبير، الذي ثبت مكانته في الفكر العالمي، فأن روسيا اليوم عبر كثير من كتابها، وعلى اختلاف اتجاهاتهم، تعيد اكتشاف ابن خلدون وتستعينه مع عدته الفكرية، لدراسة واقعها، علها تعثر على جواب يفيد في فهم أسباب القصور في بناء الدولة العصرية، بعد هرم النموذج السوفيتي وسقوطه، وتعثر المحاولات التي تلتها لعلها تستدل معالم الطريق إلى موقع عصري تطمح إليه، أو على الأقل إلى آخر كانه.

تهدف هذه الورقة إلى مشاركة بعض الكتاب الروس قراءتهم للواقع الروسي اليوم، بعرض مقتطف من مقال أو بحث على علاقة مباشرة بفكر ابن خلدون، والاستدلال عليها، من «المقدمة» ما أمكن.

راهن روسيا والمدارس الفكرية

يلحظ شانين¹ أنه يدور في روسيا على مدار العقد المنصرم، جدل بين تيارين

1 - تيودور شانين، (روسي-انكليزي) بروفيسور، مدير كلية العلوم الاجتماعية في جامعة مانشستر، يساهم في إعادة تنظيم برامج العلوم الاجتماعية في روسيا، من محاضرة تحت عنوان تاريخ الأجيال وجيلية تاريخ روسيا ألقى في النادي الثقافي في 17 آذار 2005. ويمكن

التحليل الطبقي من جهة، والتحليل الثقافي للتاريخ من جهة أخرى. ويذكر هو بالتحليل التاريخي كخيار آخر. هذا الخيار مرتبط بتعاقب الأجيال.. والمدخل ذاته قديم، يعود أول العهد به إلى الإنجيل، ولكن أولى الخطوات إلى التاريخ جغرافيا المعاصرة ترتبط باسم ابن خلدون، الفيلسوف العربي، الذي طرح نموذج دورات مسار التاريخ.

في حين يذهب نيقولا ي روزوف²، إلى الراهن الروسي ليبين «ان نزعات مقلقة وتغيرات سياسية اقتصادية واجتماعية في روسيا اليوم، تظهر لا ملائمة ولا واقعية النماذج المعتمدة والمسقط على الواقع الروسي، لا بل أكثر، ينسحب ذلك على فهمها وطريقة تبنيها (من خلال مفاهيم «الحداثة» «مجتمع في مرحلة اقتصادية انتقالية»، «الإصلاحات» «تعزيز الدولة»، وغيرها). فقد أخذت تعمل آليات معقدة، وهي كما الزبوة العاصفة، تنقض وتشد سلوك الناس إليها بكل دوافعهم ومصالحهم، أهدافهم وحتى أفكارهم وتطلعاتهم. يدور الحديث هنا بالضبط عن تنامي الضغط الثابت والمتزايد من طبقة الدولة (كبار الموظفين وبنياتها القاطرة) وبكل الاتجاهات: على مشاريع الأعمال الاقتصادية، الحركات السياسية والاجتماعية، المؤسسات التعليمية، وسائل الإعلام وغيرها.

عديدة هي المفاهيم المعروفة في الاجتماع السياسي حول تكون وتطور المجموعات القيادية، بدءاً من باريتو ونظرية النخبة، والطبقة السياسية (غايتنو موسك)، والبيروقراطية العقلانية لماكس فيبر. ولكن خاصية الاعتيادية في حفظ المظهر الخارجي «habitus»* للطبقة السياسية الروسية تبين ان الثياب -المفاهيمية الأوروبية ضيقة تماماً ولا تلائم الأجسام الكبيرة للقادة السياسيين الروس والموظفين النافذين «الجشعين». وليس عجباً، ان نكتشف ان أكثر ما يلائم

مراجعتها على الأنترنت على العنوان التالي:

<http://www.polit.ru/lectures/2005/08/09/shanin.html>

2 - د. نيقولا ي روزوف بروفيسور في الفلسفة.. المقالة تحت عنوان «قانون ابن خلدون» منشورة في مجلة «الطبقة السياسية» عدد نيسان 2006 على العنوان التالي:

C:\DOCUMENTS AND SETTINGS\ASUS\DESKTOP\XAFO\ПОЛИТИЧЕСКИЙ КЛАСС.HTM

وقد اعتمد روزوف الطبعة التالية من «المقدمة»

HYPERLINK «<http://www.politklass.ru/cgi-bin/issue.pl?id=479>» \l «p1» Ibn

.Khaldu n. 'Abd al-Rahman The Muqaddimah

An Introduction to History. NY: Pantheon Books. 1958

روسيا اليوم، وبالضبط، هو النموذج المبني على أساس دراسة تغير المجموعات القيادية في مصر في العصور الوسطى. اننا بالتحديد نعني المفكر الذي قل ما قرأناه، في ثقافتنا الروسية*. انه ابن خلدون، وانجازه الفكري الرئيس، «المقدمة»، وفيها يقدم بدقة، شرحاً علمياً تماماً للحراك الاجتماعي والدورات التغيرية للسلاسل الحاكمة، والمبني على أساس تحليل التأثير المعقد المتداخل-تبادلاً للعلاقات السياسية-العسكرية، الأخلاقية-النفسية، الاقتصادية، الجغرافية، البيئية، وغيرها من العوامل.

يشير روزوف أنه من الواضح تماماً، ان مسار وأحوال المجتمع المصري في العصور الوسطى، بالتأكيد تختلف جذرياً عن أحوال روسيا اليوم، ومع هذا، فإن النظرة نفسها، تبين ألعيتها، صحة وعلمية مدخل ابن خلدون، بأخذه بمبدأ تعددية العلاقات العلية، وخضوع المجتمع لأحكام الضرورة في تعاقب الدورات. هي مداخل يتبين أنها عصرية تماماً ومُثَقَّفة. «أنشأت في التاريخ كتاباً... أبدت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً... وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن ما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية.. وكيف دخل أهل الدول من أبوابها،.. وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعده»³.

وليس مفاجئاً، ان نعرف ان أفكار ابن خلدون يتم تطويرها اليوم، كما يتم تأكيدها وقبولتها في نماذج رياضية لمؤلفين وعلماء روس وغربيين⁴.

كما اعتمد قراءة كوراتييف لابن خلدون. (راجع الملاحظة رقم 4)

* كنظام الترتيبات المكتسبة، وعلى المستوى العملي تحديداً، كطبائع الفهم والتقييم أو كسلسلة المبادئ الفاعلة والمسيطر. ينظم التفاعلات ضمن الحقل في اسلوب «موضوعي»، يتصف بقدرتنا على ملاحظته /وفقاً ل Bourdieu

* لم يترجم ابن خلدون بشكل أساسي الى الروسية ، وانما تمت قراءته باللغات الأجنبية
3 - المقدمة ، طبعة دار الفكر، بيروت 2004، خطبة الكتاب، ص 18

4 - <http://www.politklass.ru/cgi-bin/issue.pl?id=479>، \l «p2» 2 Turchin P. Historical Dynamics: Why States Rise and Fall. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2003. Turchin P. Dynamical Feedbacks between Population Growth and Sociopolitical Instability in Agrarian States // Structure and Dynamics, # 1/2005. Коротаев А.В. Долгосрочная политико-

«قانون ابن خلدون»

يتوقف الكاتب عند «العصبية»* المفهوم-المفتاح في فكر ابن خلدون، ولأن العصبية تتداخل معانيها وتتعدد باللغة العربية، (فهي تتضمن معاني: الإقدام، النخوة، قوة الروح، العدالة، الشرف، الشعور الخاص بالحق (أحقية) وهذه لا تستحوذها مجتمعة كلمة واحدة في اللغة الروسية، ويعتمدها بعيداً عن الفهم الاستشراقي لها)، يوردها روزوف بمعنى التعاضد-الحربي، خلافاً لتورشين وكوراتيف*. اللذان اعتمداها مترجمة عن الانكليزية، بمعنى «التضامن الاجتماعي». ومع أن العصبية لا تتطابق، ولكن روزوف يرى انها تنسجم، ويمكن مقارنتها، كما مع المفاهيم الكلاسيكية السوسيولوجية، كذلك أيضاً مع تلك المعاصرة، مثل «القوة الأخلاقية»، لاميل دوركهايم، و«الكاريزما»، لماكس فيبر، «الطاقة الحسية القصوى»، رندال كولينز (كاتب روسي).

ويتوقف عند شرح ابن خلدون للعصبية، المعقودة أصلاً للبدو حيث شظف العيش، والحياة الخطرة، وما ان تصل المجموعات القيادية إلى السلطة، فأن العصبية تتطور وصولاً إلى انهيارها خلال أربعة إلى خمسة أجيال. وبانحلالها تحل واحدة أخرى جديدة مكانها على عصبية أعلى.

ومن ثم يستعرض الكاتب أسباب انهيار العصبية، فعندما يستولي الزعيم على السلطة يتطلع لاحتكارها وللاستئثار بها، ويخوض صراعاً حاداً، مع من كانوا حتى الأمس القريب متساويين أو شبه متساويين معه، ويطوع مأجورين من مرتبات دنيا، كي لا تتولد عندهم طموحات خاصة. يتسلسل نظام السلطة هرمياً، ومكان تعاون الموالين المبني على العصبية العالية سابقاً، يحل المأجورون، الذين يفتقدون لصفات التماسك وإنكار الذات.

سبب آخر يضاف هو، ميل القادة الطبيعي للترف والرفاه، (نحو الاستهلاك

демографическая динамика Египта: циклы и тенденции (в печати)

ترجمة ما هو وارد في الروسية، كوراتيف أ.ف. ديناميك السياسة- الديمغرافية لمصر على المدى الطويل : دورات واتجاهات (تحت الطبع).

* ترد العصبية لفظاً بالعربية ولكن بأحرف روسية، كغيرها العديد من المفاهيم التي يتداولها الكتاب الأجانب كما أوردها وتحدث عنها ابن خلدون، مثلاً «الملك» «البدواة» «الحضر» وغيرها من المفاهيم الأبن خلدونية

* راجع الملاحظة رقم 4

البرستيجي، بالمعنى المعاصر). فالترف يعزز المكانة والسلطة. كما ان اعتياد حياة الرفاه، خاصة بعد تغير الأجيال، يؤدي إلى إحلال الدوافع نحو الاحتفاظ بمستوى ونوعية الحياة مهما كلف الأمر، وهذا يترافق مع انتقال العدوى الاستهلاكية بالاعتداء والاختلاط من فوق إلى تحت وبالتبادل.

«ان عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب»⁵. زد على ذلك، وبما أن حياة الرفاه والدعة للقادة مرتبطة مباشرة بالاحتفاظ بالسلطة، فإن حفظ هذه الأخيرة وبأي ثمن يصبح أمراً ضاعطاً. ليس فقط لمصالح الناس العاديين، وإنما حتى لاستقرار المجتمع، والدولة نفسها تخضع أيضاً لهذا الدافع.

تساهم عدة أسباب في تفكيك السلطة والدولة، ومع ان انهيار العصبية في الأسباب أهمها، ولكنه ليس السبب الوحيد، بل ان ابن خلدون يضمّنه في سلة واحدة مع عوامل اقتصادية، طبيعية-بيئية، ديمغرافية، مع معطيات ديمغرافية-تاريخية، وطرق معاش معطاة.

ويستعرض روزوف شرح تورشين وكوراتيف للتقلبات، ليضيف أنه وعلى أساس النموذج الخلدوني، يبين تورشين الوضع التالي: طالما ان حصة العضو النخبوي من الريع أعلى من الحد الأدنى المعمول به، (الذي بلائم الحياة «المحترمة» وإعادة إنتاج ممثلي الطبقة الحاكمة) فإن الدولة والنخبة يعيشون في تناغم، ولكن إذا ما زاد تعداد ممثلي النخبة إلى مستوى معين، بحيث تتدني حصة عضو النخبة إلى تحت الحد الأدنى المذكور، فتبدأ النخبة تبرمها، وتبدأ بتغطية ما ينقصها من الثروة العامة (خزينة الدولة) والمخصصة أصلاً للمصاريف الإدارية الضرورية، والنفقات العسكرية.

يبين تورشين في نموذج الموسع، ارتباط دينامية التعداد السكاني بقدرة النخبة على انتزاع الموارد بالقوة من منتجي الخيرات المادية أنفسهم. فإذا كان الحاكمون يحلون الواحد مكان الآخر، فإن زيادة معدل نمو السكان العاديين يتباطأ، ولكن تأثير هذا ليس بكبير جداً. ان نتائج النمذجة تبين، انه كلما كان أكثر وضوحاً انخفاض تعداد الناس العاديين، كلما نجحت طبقة الحكام أكثر فأكثر في انتزاع

5 - المقدمة، الطبعة الأدبية في بيروت، طبعة ثانية، سنة 1886، ص، 122-123، النسخة التي اعتمدها د. زينب الخضير، في كتابها فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، بيروت، سنة الطبع 2006، ص، 165

نتائج عملهم (السكان).

وحسب كوراتيف فأن انجاز تورشين الجوهري، الذي حققه مستنداً إلى بعض ملاحظات ابن خلدون، هو أنه استطاع رياضياً وصف، كيف يمكن للسكان ان يختبروا التقلبات (fluctuations) التقلبات باللاتينية، اي خروج المنظومة، «السيستام» من مرحلة التوازن) في حقبة تقارب تسعين عاماً، وبمستوى أكثر انخفاضاً وبشكل ملحوظ، عن الحد الذي تتيحه إمكانات الأرض.

كوراتيف نفسه يطور خط البحث هذا، فيضمنه التقلبات الطبيعية، تراكم وهدر الاحتياطات. فيصل إلى استنتاج عام: ان نمو الإنفاق المظهري، «البرستيجي» للنخبة يؤدي إلى، أنه حتى في سنوات الخير فان كل فائض الإنتاج لا يكفي لتغطية الحاجات المتعاضمة، المغالية و(بالضبط وفقاً لابن خلدون) والتي تميل لرفاه النخبة. «ان طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم، ولا يفي دخلهم بخرجهم، فالفقير فيهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه تبرمه، ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده»⁶.

بناء الدولة وانهيارها: يتابع روزوف البحث على أساس الشرح المفهومي لأفكار ابن خلدون، فينمذج اتجاهات-بنى في رسوم بيانية لمراحل ثلاثة: من انهيار العصبية، إلى تعزيز الدولة ومن ثم الوصول إلى مرحلة الانهيار⁷، ويبين العلاقات القائمة ضمن كل منها كما يلي:

الأول: أساسه العصبية، ويقوم على استعراض أسباب انهيار العصبية ونشوء حاكمية جديدة تستولي على السلطة.

الثاني: يستند على النشاط الاقتصادي، ويبين تفصيلاً شرح ابن خلدون حول زيادة عدد السكان وشبهة الأسياد التي تؤدي إلى إنضاب الخزينة العامة، وزيادة الجبايات غير المبررة، وفي النهاية إلى خنق النشاط الاقتصادي، ضعف الجيش

6 - المقدمة، طبعة دار الفكر، بيروت 2004، الفصل الثالث عشر، ص 169

7 - المقدمة، الطبعة الأدبية في بيروت، طبعة ثانية، سنة 1886 ص 149، د. زينب الخضير، «الجيل الأول - تعزيز العصبية... الجيل الثاني يؤسس الدولة... الجيل الثالث يصير عيالاً على الدولة» / ص، 186-187/

والثالث: هو مرحلة ضعف الدولة وانهارها، حيث يؤدي شره الأسياد والموالين إلى تخفيض حتى احتياطات الغذاء، الأمر الذي يؤدي في سنوات القحط إلى نشر الجوع، و الموت، وطبعاً ينهك الاقتصاد، يضعف الجيش، ويبطل ولاء الناس. «إذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة ... إلى الزيادة في أعطياتهم...والجباية قدرها معلوم...ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات...فينقص عدد الحامية إلى أن يعود العسكر إلى اقل الأعداد .. فتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب»⁸

يبين روزوف في شرحه، انه توجد في كل من هذه البنى نُطق مغلقة عكسية العلاقات. ولكن هذا لا يعني أن النظام متوازناً تلقائياً، أو أنه ينظم نفسه بنفسه.

الموضوع هنا يكمن في أنه بعد انخفاض القدرة الحقيقية للحاكمية بالإجمال، فإنه لا يحدث انخفاض للتعداد ولشهية الأسياد والموالين، لا، بل تتمترس علاقات ملائمة كابحة، وأكثر، تتضمن آليات تؤدي إلى تعزيز النزعات السلبية التي تقرب موعد تقطع أوصال النظام نفسه.

يكمن الموضوع في ان الشعور بخطر ضياع السلطة، يدفع الحاكمين لاتخاذ إجراءات موجهة أصلاً لتعزيز مجد السلطة وموقعها في نظر الشعب، والأمم الأخرى. وكذلك العملاء الموالين. فكيف يظهر ذلك؟

- تبدأ بناء النصب (الأبنية الضخمة، المدن الكبرى، والصروح)،
- تحاول رفع المظهر الدبلوماسي للبلد (من خلال الهدايا للأمم والقبائل الأخرى).
- تستعرض مظاهر القوة والازدهار(تحسن وضع الجيش، وتزيد من إنفاقها عليه، الذي يتمظهر بذخاً في مظهرهم وعدتهم، والذي يعطي انطباع عطف وصداقة المملكة، ويخيف أعداءها)، وكذلك تهادي الموالين المستأجرين.

من الواضح، ان إجراءات كهذه، من ناحية، تشرعن فعلاً الحاكمية وتطول وجودها

ولفترة ما، ولكنها من ناحية أخرى، وبسبب المغالاة في الإنفاق، تساعد على تعميق أساس الأزمة المخفي، وهذا كله يؤدي إلى تقصير عمر السلطة في ما بعد.

استناداً الى استنتاج ابن خلدون نفسه، يحاول روزوف اشتقاق «قانون ابن خلدون» وفيه: ان الطبقة الحاكمة، وبحقيقها لاحتكار السلطة المطلقة، تنمو وتتزايد حاجاتها مع الوقت، الأمر الذي يخفض قدرتها الملائمة للتوائم، مع إنضاب الموارد الاجتماعية، انخفاض النشاط الاقتصادي، إفقار وحرمان الناس، وهدر القدرة. في هذه الظروف، فأن محاولات استعراض القدرة والسعة، في وجه الخصوم الخارجيين، وأيضاً في مواجهة شعبها، وبإغراء المأجورين، ربما أمكن لها ان تمد الدولة بفترة عمر توجل، ولكن لا يمكنها أبدا ان ترد سقوط النظام وتغير السلطة.

«ان صاحبها... (أي الدولة) كثيراً ما يتخذ أجناده من زناته والعرب ويستكثر منهم، ويترك أهل الدولة المتعودين للترف مستجداً بذلك عمراً آخر سالماً من الهرم»⁹

على اي حال، يستنتج روزوف، ان هذا ليس شيئاً خاصاً بالعصور الوسطى، بالمجتمع العربي أو المصري. ان هذا «القانون» يمكن استعماله في النقاشات حول الاسئلة التاريخية بما فيها أيضاً لشرح راهن روسيا المعاصر.

ويضيف روزوف متسائلاً، ولكن اين يكمن ضعف هذا «القانون» ليجيب أنه في عدم كفاية شروط خاصية التساوي لتبنيه. حتى لو ان احتكار السلطة، يؤدي إلى نمو وزيادة تعداد ونهم ذوي السلطة وحاشيتهم، وإلى انخفاض القدرة الملائمة للتعاطي مع الصعاب الناشئة، فمن غير المؤكد أنه، في كل مرة يؤدي ذلك إلى عجز السلطة وتغيرها. ان تاريخ الامبراطوريات العسكرية-الزراعية نماذج الدول المطلقة والمستبدة، تعطي أمثلة كثيرة لمراحل طويلة نسبياً من الاستقرار.

من الواضح أنه في هذه الحالات تدخل عوامل إضافية، تقيد ظهور أحكام ابن خلدون الكلاسيكية، ولشرح هذا السؤال الصعب نتجه للنموذج العام لحراك التاريخ.

النموذج العالمي لحراك التاريخ

ان هذا النموذج يتناسب تقريباً مع العديد من العصور التاريخية، التي تقطع الاستقرار النسبي فيها، مراحل من الخلافات والأزمات والركود، وغيرها. ففي هذا

النموذج ووصف حراك معقد بديل، يتركز الاهتمام على مراحل الاستقرار، وهذه توحدها مفاهيم ونماذج، أرنولد توينبي (التحدي والاستجابة)، «اليات التعبئة» تشارلز تيلي، «الاستراتيجيات الديناميكية» غرم سنوكس، وغيرها.

يستعرض روزوف هنا، ثلاثة أنواع من الاستجابات على التحدي الذي يواجه النظام. نتطرق إليها باختصار.

أولاً: الاستجابات الملائمة المحايدة التي تحد من تأثير عناصر الاستقرار وتعيد النظام إلى مرحلة الاستقرار الطويل نسبياً.

ثانياً: الاستجابات الملائمة المعوضة التي تخفض بشكل أو بآخر من الاضطرابات وتعيد النظام لوقت محدد إلى مرحلة الاستقرار.

ثالثاً: الاستجابات غير الملائمة، كقاعدة عامة، تؤدي إلى تصعيد النزاعات وتعميق الأزمات وصولاً إلى أزمة النظام نفسه، مع استبعاد إمكانية العودة إلى الاستقرار.

من السهل ان نلاحظ، يضيف روزوف، انه وفقاً لـ «قانون ابن خلدون» يؤخذ في الاعتبار الخيار السلبي الأخير، الذي يؤدي إلى سقوط وتغير السلطة، ومن المثير ان نلاحظ، ان أداء القادة، الموجه أصلاً لتعزيز سلطتهم، باستعراض القدرة والسعة، انما يمثل استجابات ملائمة لبعض الوقت، ولكن وبتغير الظروف، فأن هذه الاستجابات نفسها يتبين أنها غير ملائمة، فهي تثير النزاعات والأزمات ومن ثم انهيار النظام. وهذا ما يمكن تسميته بظاهرة قطع الاتصال.

روسيا: نمو غير مرئي للأزمة

وفي توقف عند الوضع الروسي، يرى روزوف أنه تلحظ في روسيا المعاصرة ومن خلال مظاهر الاستقرار، أنه تتراكم في الخفاء عوامل لا شك انها ستشكل تحديات وأزمات، وتُرى عدة نطق دائرية لهذا التراكم. نتطرق إليها باختصار.

ان نطاق الفساد المالي مهمل بسبب النمو المهيّب لقوى الدولة وادارتها الضابطة، والمراقبة لبنى وبيانات (السياسة الضريبية، الجمارك، وزارة الداخلية، قوى الأمن، القضاء، الإطفاء، التفيتش الصحي). يجب الاعتراف، ان هذه القوى استطاعت وحتى بداية العام 2000، تمكنت اذا لم يكن من القضاء، فعلى الأقل إضعاف المساحات

السابقة لعصابات الابتزاز المالي الإجرامية. ومن ثم تم تعميم وتطوير «خدمات الأمن»، وهذه الأخيرة، في العادة مرتبطة مباشرة مع القوى البنيوية للدولة.

في حقيقة الأمر، فأن سوق خدمات الأمن أصبح في أيدي قوى الدولة، أو ما يشبه الدولة. وهؤلاء استوعبوا هذا «البيزنس» المجدي، الثمين والمنمذج. وقد ظهرت عند هؤلاء «رجال أعمال القوة» (بيزنس القوة) الآن إمكانية إخضاع موارد الدولة (من تدقيقات الضرائب، وفرض الغرامات، وحتى إمكانية الاعتقال الشخصي، وحجز الحسابات المصرفية، ومصادرة الأملاك أمام القضاء). في ظروف التدبر الذاتي العالي، وطلب السوق، فأن أي منظمة، تملك مؤهلات استعمال القوة، فلا شك انها ستستثمرها.

تقرب طغمة «اوليغارشيا» القوة المتحدة، (التعبير لميخائيل ديلياغن) متراسة ومبتزون ينتحلون صفة الدولة (عصابات ابتزاز ينتحلون صفة الدولة، لأن فرض الأموال وجمعها، وتحصيلها كحصة، يتم ليس على أساس قانوني، وإنما بالتهديد، وهذا انتحال لصفة الدولة، لأنه وبالرغم، من انه يتم تأمينها باسم الدولة، إلا انها تؤمن وبالدرجة الأولى المصالح الخاصة لمجموعات قوى الضغط والموظفين).

ان النتائج المنتظمة «المستتمة» لنمو هذه الظواهر، معروفة جداً: انتهاك الملكية¹⁰، إعاقة النشاط الاستثماري والابتكاري للمواطن، وفي بعض الأحيان، تقليص الأعمال وجعلها غير مربحة. ان اتساع نطاق هذه الظواهر يؤدي حتى إلى تبطئة النمو الاقتصادي (وفي المنظور طرد المستثمرين الوطنيين من السوق المحلية، (الروسية))، تثبيت الفقر، إعاقة نمو الطبقة الوسطى، وفي نهاية الأمر تقليص الأساس الضريبي، واحتمال نشوء مشاكل التراكم للموازنة، بعدما تسوء ظروف تشكل الأسعار لمواد الخام المصدرة. يتابع روزوف، (نلاحظ بين هلالين، أنه بإجراء تناظر شفاف، فإنه يمكن المقارنة مع مواسم «حصاد سنوات المجاعة»، وظروف

10 - يتوزع الاهتمام بابن خلدون في اختصاصات مختلفة، اذ قدمت ستراستينا تاتينا بحثاً علمياً عن «حق الملكية في أعمال مفكري الاسلام في العصور الوسطى»، كراسنار، جامعة الكوبان، كلية الحقوق، عام 2000 وهي تبين مقاربة ابن خلدون العلمية لموضوع الملكية. اذ يرى ان تقديس الملكية واحترامها يجب ان يكون ناموس العلاقات، لا بل أنه اعتبر ان تطور الملكية بالضبط هو ما يدفع الحضارة الى الأمام. وقد حذر في تحليله من نتائج انتهاك الملكية، لأنه كنز العرق عن العمل، وأوضح ان نزع الملكية يجب ان يكون فقط بقانون، يعبر عن العدالة، واللاعالة هي نزع الملك دون سبب أو تعويض. المقدمة، / دار الفكر، الفصل الثالث والأربعون، في ان الظلم مؤذن بخراب العمران، ص، 272-275

تكون الأسعار العالمية على الطاقة، ان نطاق الاستنفاد هذا بالضبط ما يصفه تماماً دياكتيك بنيان ابن خلدون).

وبما ان رد الفعل المعتاد، للسلطة الروسية بعد استنفاد الخزينة، - «تنفيض» المتأخرات الضريبية وجبايتها، وهذه لا يمكن تذليلها بأي شكل. فبعد تطور كهذا للأحداث، يجب توقع «تعزير الدولة» - نمو السلطة الكاملة لأوليغارشيا القوة، التي تشدد إقفال الدائرة.

ان النطاق الإنساني-الاجتماعي يوحد عوامل نمو الضغط الاجتماعي والسلوك المعترض مع عوامل استنفاد «الرأسمال الإنساني» للبلاد، (من الهمة، التمكين، والاختصاص، حتى الصحة، وإعادة إنتاج الإمكانية).

غالباً ما نتكلم عن الفقر المنتشر، ولكن عامل الضغط الاجتماعي الأهم، ليس نفسه مستوى الحياة، ولكن تعاظم الفجوة، وتمظهرها اللاعادل، وانعدام الأمل. وحده التفاؤل، الأمل بالغد والوفاء للسلطة ما يميز فقراء الاتحاد السوفيتي في الأعوام 50 - 60 من القرن المنصرم، عما يعانیه فقراء اليوم، الذين ينظرون للرفاه والبذخ أمامهم، للمستوى الذي لن يبلغوه مهما عملوا. هذا هو السبب الرئيسي للضغط الاجتماعي، والاستعداد للمشاركة في صفوف الكتل المعترضة.

ان هذه العوامل، من ناحية، تعزز الغربة الشخصية عن الدولة، وإخفاء المداخل على نطاق واسع، وزيادة قطاع اقتصاد الظل، ومن ناحية أخرى، فان الإنفاق على الإعانات والدولة السلطوية (قل اوتورتي)، التي وبالعكس تضغط على من يحاول أن يثري، وتكافئ من يفقر. عجيب، أن هذين الجانبين يبدوان متناقضي النتائج، إلا انهما يعملان معاً، باتجاه واحد، نحو تعزير وتأمين استمرارية فاعلية اوليغارشيا الموظفين - الأقوياء، الذين يجيزون نطاق الفساد المالي، الذي تم ذكره سابقاً.

ويضيف الى هذه النُطق، النطاق الديموغرافي-الجيوسياسي، حيث تنخفض نسبة المواليد في روسيا، وهذا يعكس بشكل أو بآخر، ضعف التكيف الاجتماعي.

يؤكد روزوف، ان هذا لا يعني ابدأ ان الصورة قاتمة تماماً للمستقبل الروسي، وهو يذكر بتأثيرات وإمكانات ايجابية تتمتع بها روسيا كارتفاع أسعار النفط التي تلعب دور الوسادة الواقية، وكذلك تطور التجارة الخارجية وازدهار السياحة.

ولكن روزوف لا يخفي ان تأثير العوامل والنطق المذكورة أعلاه، تؤدي إلى أزمة اقتصادية، اجتماعية، مع احتمال تعمق الصراعات الاثنية، والضغط الجيوسياسية. ولكن كم ستطول الأزمة، وما هي النتائج التي ستنتهي إليها - بأي حال، لا يمكن أبداً الاعتماد على النموذج المقدم. غير أنه من الممكن تقديم سيناريوهات أساسية، ل «نظم مثالية» يمكن ان يؤول إليها الوضع.

وينهي روزوف مقالته بالحديث عن خيارات أربعة متاحة أمام روسيا برأيه ، وهي تخرج عن إطار موضوعنا، لذا سنكتفي بعرض عناوينها وهي:

- صراع النخبة في ما بينها والثورة
- الردع الدموي للعصيان ورد الفعل التوتاليتاري
- ردع الاعتراضات المتنافرة وتجميد الحال
- ظهور قوى معارضة مسالمة ومتعاضدة في ما بينها.

محزنة نظرية ابن خلدون لكنها صحيحة

وتذهب يوليا لاتينينا¹¹ إلى الواقع الروسي مباشرة، لتبين انه في الانتخابات الروسية السابقة، وضع في صلب الاهتمامات، محاربة الإرهاب، وهذه يتقدم عليها الآن موضوع محاربة الأوليغارشيا.

بالأرقام، يشكل إجمالي الناتج المحلي الروسي 350 مليار دولار أمريكي، تشكل حصة المواد الخام منها بين 100 إلى 120 مليار دولار أمريكي . وتبلغ حصة الفرد الروسي من إجمالي الناتج ثلاثة آلاف دولار أمريكي، يشكل النفط ألف دولار منها. وتقرن، ان حصة الفرد من الناتج في أمريكا تبلغ 30 ألف دولار أمريكي. فمن الواضح، أنه حتى لو زاد معدل الاقتطاع الضريبي في روسيا من النفط إلى 50%، عن معدله الحالي وهو 38%، فأننا لن نصل إلى وضع أمريكا.

أكثر من ذلك، تجري لاتينينا المقارنة المثيرة التالية: ان مبرمج متوسط في أمريكا يحصل سنوياً ما مجموعه مئة ألف دولار، في حين تبلغ قيمة ما ينتجه في الحد الأدنى عشر مرات أكثر، أي مليون دولار أمريكي. فتستنتج ان كل إمكانيات إنتاج الطاقة في روسيا، تساوي قيمة ما ينتجه مائة ألف مبرمج. وتضيف انه حتى لو

11 - Юлия Латынина №107 16.2.2004

لاتينينا، مقالة: مكانك بعد عشرين عاماً، المجلة الأسبوعية، يوليا

تمكن المبرمج الروسي من تحقيق نفس العائد الذي يحققه زميله الأمريكي، فالسؤال هو أين سينفقه؟ على الأرجح انه سيسافر إلى أمريكا لإنفاقه. وتشير ان عدد السكان الناطقين بالروسية في لندن زاد العام الماضي من 100 ألف إلى 370 ألف روسي، لتؤكد ان ليس كل من يغادر روسيا اليوم هو من الأوليغارشيا أو مشرد.

فتحذر لاتينينا انه اذا لم تستطع روسيا ان تصبح دولة ما بعد صناعية، وهذه لا يمكن اقامتها من خلال تقاسم الموارد الموجودة، فأنها ستخسر أمام الصين، وحتى أمام العالم الإسلامي بداية في التنافس الاقتصادي، ومن ثم في الحرب.

بعد النفط والغاز في الأرقام يأتي في روسيا قطاع الرشوة (فزياتوك/ بالروسية) في الأهمية. وفقاً لبعض الخبراء، فإن حجمه بلغ 40 مليار دولار في العام الماضي(2003). وهذه السوق لا تتكبد ضرائب ولا أكلاف. بالأحرى ان بنيتها تقوم حيث الأرباح الصافية - الرشوة - يحققها واحد، في حين ان الشعب كله يدفع الأكلاف.

تبين لاتينينا ان 80% من مصاريف أي مؤسسة تذهب على الطاقة والنقل والضرائب. وهذه كلها مصاريف - لمنتجات تراقب أسعارها الدولة. في هذه الظروف، يوجد وسيلتان فقط لتخفيض النفقات: اما استثمار مليارات في التجهيزات، أو ملايين في الرشوة. من هو المنتج الأحمق الذي سيختار الأول؟ ان اقتصاد السوق - هولة تهدف إلى زيادة كل مجاميع الربح. في حين ان حرب القرون الوسطى - هي لعبة مع عائد يساوي الصفر، حيث يعاد توزيع الغنائم. ولكن اقتصادنا هولة مع تخفيض لكل مجاميع الربح. وكلما انخفضت هذه المجاميع، كلما شح عطاء القائمين بها.

ابن خلدون واحد من أهم المبدعين المفكرين والمؤرخين العرب، وصف أسباب ازدهار وسقوط الدول العربية في القرون الوسطى. في البدء لا تكون الدولة كبيرة، وتكون عادات القائمين عليها متواضعة، والضرائب قليلة. عندما تكون الضرائب قليلة ينمو الاقتصاد، فينتج عن هذا النمو القصور الفخمة وبخل الموظفين. كلما زاد ترف الدولة وتباخل الموظفون، كلما زاد فرض الضرائب والرشى. كلما كان أكبر فرض الضرائب والرشى، كلما انخفض إجمالي الناتج المحلي. وكلما انخفض إجمالي الناتج المحلي كلما زاد بخل الحاكمين الذين اعتادوا حياة الترف. وكلما كان الحاكمون أبخل، كلما كان إنتاج الاقتصاد من البضائع أقل. النهاية دائماً واحدة: عندما يصل فقر العوائد ودسائس الموظفين إلى الذروة، يصل البدو من السهوب والصحارى ويصادرون الدولة المنهارة، وهؤلاء بسيطين واحتياجاتهم متواضعة.

محزنة هي نظرية ابن خلدون، ولكنها صحيحة ليس فقط للعرب في القرون الوسطى: ان أي دولة يتوزعها التقاسم الدائم للخيرات وبخل حاكميها، محكوم عليها بالاستيلاء عليها، أو بالثورة.

علم الثقافات: جلاء القوانين وتوقع المستقبل

في حين ينتقل فلاديمير أوليانوف¹² من الخاص الضيق الروسي، إلى العام الكوني الشامل. فيبين أهمية الكولتورولوجيا (علم الثقافات): ان الكولتورولوجيا في اتحادها مع علم الاستشراق يمكن لها ان تمكننا من:

- 1- جلاء القوانين العامة للثقافة الانسانية وتطورها
- 2- توقع المراحل المستقبلية لتطور الثقافة.

بتجميع كل ترجيحات علم الثقافات، وبعيداً عن تأثير الرؤى (أبوكالبتية)، يمكن ان نحصل على هذه الصورة، نرتب أولاً التوقعات بفرزها، الكونية، الاجتماعية- السياسية، الحضارية والاثنولوجية. بعدئذ، نعرف أنفسنا وموقعنا في العصر الراهن (بالطبع يقصد روسيا). ونقسم أنفسنا بين: نحن الأرض (العالم) ونحن روسيا.

فمن وجهة نظر التطور الحضاري، نحن العالم نمر في مرحلة الحضارة وفقاً لشبنغلر، أو الثقافة الحسية وفقاً لسوروكين¹³. وهذه هي الحقبة الأخيرة من ثلاثية أداء التطور، ان وفقاً لشبنغلر، يحل الموت النهائي لهذه الثقافة تحت تأثير ضربات الجيران، ووفقاً لسوروكين، تبدأ طلاقة تفكر* لدورة ثقافية جديدة.

12 – Владимир Емельянов ГДЕ МЫ СЕЙЧАС С-ТОЧКИ ЗРЕНИЯ КУЛЬТУРОЛОГОВ № 304, 29 декабря 2002 г, استاذ ، فلاديمير أوليانوف، مقال على الانترنت تحت عنوان أين نحن اليوم من وجهة نظر جامعي، كلتورولوجيا واستشراق، مقال على الانترنت تحت عنوان أين نحن اليوم من وجهة نظر الكولتورولوجيا، كانون الأول 2002

13 – Spengler Osvold, (1880-1936), П.А.Сорокина (1889-1968) русско-американского социолога, P.A. Sorokin (1889-1968) سوروكين ب. أ عالم اجتماع روسي أمريكي،
* Ideational، أرتاينا ترجمتها الى العربية طلاقة التفكير

ان حضارتنا الراهنة يميزها التوسع، الانتقائية، الفردانية، الترميط، الديمقراطية، تفوق المادي على الروحاني، والعالم الخارجي على الداخلي، اللاتدين، العبث الاستهلاكي بوسائل إبداعية.

عصرنا الكبير -الوحدانية- وقد مر بثلاث مراحل في تطوره، ويبين اميليانوف أنه سيتبع سوروكين. ففي مرحلة طلاقة التفكير الثقافي في مناطق الشرق الأدنى للإمبراطورية الرومانية، نشأت المسيحية، التي ما لبثت ان انتقلت إلى شمال الإمبراطورية. ان رد الفعل على طلاقة التفكير المسيحي كان الإسلام، الذي نشأ في طرف المساحة الثقافية للإمبراطورية السابقة، وناقض بشدة الغرب اللاتيني الناشئ. هذه مرحلة، حلت مكانها تالياً ثقافة النهضة، مُحددة ومُتمثلة في ذاتها ما كان قد تحقق من مُحصلات ثقافية، عربية- إسلامية، رومانية، يونانية-بيزنطية ويهودية. لم يتشكل في ذلك الحين الثقل الإسلامي الموازي، لأن الإسلام السياسي، كان مصادراً من الأتراك، الذين لم يملكو فكرتهم الخاصة عن التطور. في حين ان المفاهيم الروحية للإسلام كان الغرب قد استحوذ عليها. بعد عصر النهضة، فأن مركز الثقافة تم ارتحاله من الجنوب إلى شمال أوروبا، ومن هناك إلى ما بعد المحيط، حيث تخلت الثقافة المثالية عن الأفكار، وتبنت أو تبلورت في الحسية. عند ذاك، من جديد عاد لينشأ الإسلام كثقل موازي، كتوجه حام لفكرة التوحيد، كمانع لتهديم الأسس الروحانية للحضارة.

وفي تطويره لهذه الفكرة، يرى اميليانوف، ان الإسلام، في تاريخ حضارتنا الوحدانية، يمثل حامي مفاتيح الأيمان. هذه مهمة التي لم يستطع اليهود، وهم أساس التوحيد، القيام بها، بسبب نزعتهم القومية. كذلك هي حال الأوروبيين، المتفرقين لغة وأعراقاً، وقد عرفوا التوحيد لفترات قليلة، وحدهم فقط العرب - الإسلام (أقرباء اليهود والقريبون منهم ثقافة، ولكنهم يختلفون عنهم بانفتاحهم) استطاعوا حفظ النبض الأول للحضارة، بتقديمهم الأساس الروحي للوجود على المادي، والمدافعين عن الأيمان بوحدانية الله بوجه الهجمات المادية المتبلورة في التجريبيين. وإذا ما رغبت اليوم في الخروج من مرحلة الوحدانية إلى عصر جديد، فأننا إنما سنتعامل مع الإسلام، الذي لن يسمح بذلك هكذا ببساطة. وحسب سوروكين، انما نحن نقع في مرحلة الانتقال من الحسية إلى مرحلة طلاقة تفكر جديد، ولقطع هذه المرحلة، لا بد لنا من حل الخلاف مع حماة القانون القديم، بإقناعهم بتتبع النبض الروحاني الجديد.

مخطط ابن خلدون يتحقق في أوروبا

وفي استعراض للواقع يرى اميليانوف، ان الحضارة المدنية الأوروبية مترهلة وضعيفة، انها تترنح تحت وطأة ضربات القادمين الجدد من الشرق. وهكذا بالضبط يتأكد مخطط عالم الاجتماع العربي ابن خلدون حول مرحلتي تطور المجتمع المدني: (البداءة، المشترك الزراعي) حيث يتعلم الناس ان يعيشوا مشتركين بتعاضدهم معاً، كل فرد يطور نفسه ضمن المشتركة «الأوبشينا، بالروسية»، لمواجهة مخاطر الطبيعة، للتكيف معها، وأكثر لاحتوائها، وكل شخص يعي بدقة موقعه ومهمته الطبيعية في هذه «الأوبشينا»، انطلاقاً من قدراته، وهذا ينعكس استعداداً لتبادل المساعدة، والمشاركة في النشاط العام. «تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو... وكان تعاونهم في حاجاتهم وعمرانهم... انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة»¹⁴

ثم ينشأ الفئاض، ويخلق اتجاه نحو التمتع بالخيرات والترف، وسرعان ما يبدأ التفكير بحماية فائض الحبوب من الآخرين. وينعزل الشخص الغني ويكف عن المشاركة في حياة جماعته. هكذا تنشأ المدينة، وتبدأ المرحلة الثانية. يصف اميليانوف بالتفاصيل صورة أوضحها ابن خلدون، بدقة معروفة. أي مرحلة الانتقال إلى الحضر، إلى المدينة. وفي المدينة، يتابع اميليانوف مقدماً فهمه لابن خلدون، لا يوجد الفئاض المحصل سوياً، وقطعاً لا يوجد مصلحة للواحد بالآخر، في البدء يعيش كل فرد على ما يدبره لوحده، ومن ثم على حساب الفئاض الذي يحققه التابعون. وتظهر أكثر فأكثر فئة متعطلة من الناس لا عمل لهم، أنهم ليسوا محاربين، ولا مزارعين، ولا يديرون شيئاً، عليلو الصحة، تخبو لديهم الروح وحتى غريزة البقاء (قلة حب وعدم إنجاب). وعندما يصبح هؤلاء أكثرية تضعف المدينة، وتسرح الفرصة لبدو جدد لاستغلال هذا الضعف. يعيش البدو في البدء على الهامش، على يمين الموجودين، كناس درجة ثانية، ومن ثم ينقضون كالعاصفة على المدينة، يأخذونها يملكونها، بأشياءها، بنسائها، ويضخون في حياة المدينة الموت، «دماً» جديداً وتبدأ الحياة دورة جديدة.

ليس من الصعب، وبقراءة ابن خلدون، ان نستنتج انه هكذا بالضبط حصلت الأمور في الإمبراطورية الرومانية المتهاكمة في آخر عهدها، حيث انقضت عليها قبائل الجرمان، وقبل ذلك أيضاً انحطاط اليونان واستيلاء الرومانيون عليها، وكذا أيضاً لبلاد فارس التي استولى عليها الإسكندر أولاً ثم العرب... شيء ما بالضبط مشابه

يلحظ الآن وجوده في المدن الأوروبية، المتخمة بالأغنياء المتعطلين.

ان المسلمين، البوذيين، الهندوس، وهنود أمريكا اللاتينية، -أبناء المستعمرات، يعيشون بهدوء في بلاد مستعمرهم السابقين-، مؤهلين تماماً ومستعدين، للعب دور «البدو» الجد ، والبده بتضبيب الحضارة من جديد، منطلقين من تصورهم الخاص لمستقبلها.

وبالعودة إلى التقسيم الأولي حول موقع العالم، من الواضح اننا نمر على حافة تغيير المدبر للعالم، كما في أوروبا كذلك في أمريكا.

وبالتوقف عند الحالة الروسية، يتعرض اميليانوف لتاريخها غير المستقر في تبني الخيارات. ومع انها شكلت مثالا في ما مضى لبعض الدول الإسلامية، أو لأخرى في أمريكا اللاتينية، للهند، وغيرها، إلا ان الوضع مختلف الآن، فكثير يرون ان روسيا تقع في مرحلة عبور الأزمة، وهذه ستمتد لسنوات عدة، وهذا ما يتطابق مع عبور الإنسان لمرحلة النضج. وبهذا يرى اميليانوف ان المجال السياسي-التاريخي لروسيا اليوم ضيق إلى حد ما، لذا فان العالم وروسيا اليوم في موقعين مختلفين.

خيارات للمرحلة المقبلة

ان النظام الحالي غير متوازن، يضيف اميليانوف، ويوجد عدة قوى تتصارع من أجل إثبات حقها في إقامة الترتيب الجديد، وحدها الصدفة تقرر من سيكون، ولكن ما هي الادعاءات والخيارات؟

الخيار الأول - الولايات المتحدة الأمريكية، التي وعبر سياسة التهديد والترغيب تريد أن تؤسس الولايات المتحدة الأرضية، ولكن مشروعها يمكن ألا تتحملة الظروف البيئية، كما انه من المؤكد ان 80% من سكان هذا العالم (وصفهم الأمريكيون بأنه لا يمكن تصحيحهم، يستعمل كلمة losers) لن يتحملوا ذلك، كما أن الناس تود ان تكون مختلفة، وهذا في طبيعهم وثقافتهم. اذن الخيار الأول فاشل.

الخيار الثاني - النظام الاسلامي، (وقد رأينا حدوده مع تجربة نظام طالبان)، لا يناسب، لأنه أخلاقياً عتيق بال، والناس تحب الحرية.

ان الإسلام في عصرنا الراهن ممكن كرده فعل فقط، ولكن ليس كمشروع بناء ايجابي. فاذا لم يكن الخيار أمريكا، ولا المتطرفين العرب، يعني لا الساميين أيضاً،

إذن، لا الفكر المسيحي ولا الإسلام.

الخيار الثالث - الشرق الأقصى، الهند، الصين، اليابان كوريا الموحدة (يوماً ما)، اليابان مشبوبة مع أمريكا، تسقط معها، الهند ايجابية وحيدة فيها روحية فقط. تبقى الصين القوية والتي تتمتع بالموارد البشرية، ولكنها ستواجه قريباً صراعاً مع الايدولوجيا الشيوعية، مع هذا فالمجتمع شرقاً وغرباً يتجه نحو البوذية. يضاف إلى هذه المجموعة إيران، التي تتطور بحيوية روحية، وليس مستبعداً أن تحتل في العالم الثقافي والسياسي تلك المكانة التي احتلتها الدول العربية، إذن انه وبعد التصحيح خيار إيران والشرق الأقصى.

الخيار الرابع - روسيا كخيار اقل الاحتمالات حدوثاً ولكن من يدري، قد تحدث صدفة ما. ان قفزات روسيا لا يمكن التكهن بها، لم يكن ولن يكون لروسيا مسار طبيعي.

على أي حال فإن أي من القوى السياسية الكونية لن يكون لديها السلطة المطلقة في العالم المقبل.

فخلال بضعة عقود، قد تصبح الولايات المتحدة جزءاً من أمريكا اللاتينية، وأوروبا جزءاً من آسيا الإسلامية، لنذكر الأبيقورية السابقة في العصر الهليني: نشأت المسيحية في الإمبراطورية الرومانية، وهذه الأخيرة ما لبثت أن اختفت. كظاهرة ثقافية، مثلت المسيحية انترولوجيا الشعب اليهودي معبراً عنها باللغة اليونانية. اختفت الإمبراطورية الرومانية، ماتت اللغة اليونانية القديمة، انتقل اليهود، ولكن الحضارة المسيحية خلقت، وحولت العالم.

شيء ما مشابه يجب أن يحدث هذه المرة أيضاً، فليكن ما يكون، ولكن فقط ليس ما هو قائم اليوم. لن تكون هناك رؤى (أبوكالبتية) بل سيكون المستقبل. يشترك الجميع على اختلافهم في خلق نموذج ثقافي جديد، لم يكن، ولكنه ينبني متضمناً الانجازات السابقة. لن تكف التكنولوجيا عن التطور، وسيحل صفاء الروح مكان دوغما الأديان.

ان إنكار التطور يعني إنكار الحياة، «وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم

ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر»¹⁵. و«التطور ظاهرة أساسية في كل العلوم التي تدرس الكائنات الحية إلا أنه يأخذ مكانة جوهرية في التاريخ فالتاريخ هو قبل كل شيء علم تطور المجتمعات الإنسانية»¹⁶. «انظر إلى عالم التكوين وكيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج... ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده .. وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القرود الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذه غاية شهودنا»¹⁷. و«حقيقة التأريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم...»¹⁸ «وللدقة نقول أن عمران العالم هو تملكه الاجتماعي»¹⁹

ونختم بما يورده، بوخاريف» أن ابن خلدون ينظر إلى إحساس الجماعة، كشيء موجود وبشكل مستقل عن أي قانون ديني أو أخلاقي. إذ أن إحساس الجماعة هذا، إنما هو طبيعي، ثابت، فيه خاصية الوجود الدنيوي للتواصل الإنساني، بالرغم من أن القانون الديني يسهم في تواصل البشر ويؤثر في إحساس الجماعة، ويقويها، إذا، ما توجهت أحاسيسها نحو العدالة الاجتماعية، كما أنه قد يضعفها.

لينهي أن علم الاجتماع عند ابن خلدون، إنما ينبع من المعرفة العميقة للتاريخ، وتجارب الإسلام، الذي كثيراً ما يتصوره مسلمون مؤمنون حالياً كمنظومة بسيطة، ولكن هذا التطلع إلى التبسيطة، إنما هو كمثال تحويل علم الجبر إلى الحساب المالي، دون الأخذ بالاعتبار أنه حتى علم الجبر هو عرق العلم الإسلامي (الخوارزمي، الفارابي،... وغيرهم)²⁰.

15 - المقدمة، دار الفكر، في فضل علم التاريخ، ص 39

16 - الخضيرى، سبق ذكره، ص 87، نقلاً عن Seignbos

17 - المقدمة، الطبعة الأدبية، بيروت، 1886، ص 84، الخضيرى، ص 89.

18 - المقدمة، دار الفكر، الكتاب الأول، ص 46.

19 - مهدي عامل، في علمية الفكر الخلدوني، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الرابعة 2006، ص 24.

«أما بعد فان فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال... هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق»²¹.

21 - المقدمة، دار الفكر، خطبة الكتاب، ص، 16

المراجع

باللغة العربية:

- 1 - «ابن خلدون» المقدمة ، طبعة دار الفكر، بيروت 2004.
- 2 - زينب الخضيرى، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، بيروت، الطبعة الرابعة، 2006
- 3- مهدي عامل ، في علمية الفكر الخلدوني، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الرابعة 2006

مراجع على الأنترنت

باللغة الروسية:

1. Д-Р ФИЛОС. НАУК. ПРОФ. Н.С. РОЗОВ
دكتور، بروفيسور في علم الفلسفة، نيقولاى روزوف، المقالة منشورة على الإنترنت، تحت عنوان «قانون ابن خلدون» في المجلة الشهرية، الطبقة السياسية، مجلة الفكر السياسي في روسيا، عدد نيسان 2006، يمكن إيجادها، Политический Класс.htm
2. فلاديمير أوليانوف، أستاذ جامعي، كلتورلوجيا واستشراق، الموضوع منشور تحت عنوان أين نحن اليوم من وجهة نظر الكولتورلوجيا، كانون الأول 2002، يمكن إيجادها، Владимир Емельянов ГДЕ МЫ СЕЙЧАС С ТОЧКИ ЗРЕНИЯ КУЛЬТУРОЛОГОВ.htm № 304, 29. декабря 2002 г
3. تيودور شانين، بروفيسور، مدير كلية العلوم الاجتماعية في جامعة مانشستر، يساهم في إعادة تنظيم برامج العلوم الاجتماعية في روسيا، الموضوع منشور تحت عنوان، تاريخ الأجيال وجيلية تاريخ روسيا. T. Шанин» «История поколений и поколенческая история России» 17 марта 2005
4. يوليا لاتيننا، المجلة الأسبوعية №107 Юлия Латынина 16.2.2004 .
5. رافال بوخاراييف، Равиль Бухараев www.noukhaev.com/responses/buharayev.txt
6. تراستينا تاتينا بحث علمي عن «حق الملكية في أعمال مفكري الاسلام في العصور

الوسطى»، كراسندار، جامعة الكويت، كلية الحقوق، عام 2000 . STAR.htm
مع الإشارة إلى الأستاذين اللذين تم تناول عملهما .:

PETER TURCHIN is Professor of Ecology and Evolutionary
Biology, University of Connecticut,
Storrs, CT 06269, USA

ANDREY KOROTAYEV is Professor and Head of the “Anthro-
pology of the Orient” Program,
Russian State University for the Humanities, Moscow, Russia.
Currently (until June 1, 2004) he is a Visiting Fellow at the Ins-
titute for Advanced Study, Princeton, NJ.

ولا يزال العمل جار على موضوعهما. وهو تحت عنوان:

Population Dynamics and Internal

Warfare: a Reconsideration

by Peter Turchin and Andrey Korotayev

(not for citation, article in review)